تضخم المقدس – مظاهر وتمثلات وبحث عن الضوابط

مخلص السبتي

تضخم المقدس في التجربة المسيحية.

في البداية ينبغي ملاحظة أن عيسى عليه السلام لم يأت بهدف تأسيس دولة أو تبليغ شريعة[[1]](#footnote-1) بل أتى للدعوة إلى نبذ الوثنية ونشر التوحيد ،مع تصحيح القيم الأخلاقية والدعوة إلى المحبة والسلام.

فكانت رسالة عيسى رسالة روحية مستقلة عن الدولة وسلطاتها، وكانت في الوقت ذاته تعمل على التمييز المستمر ما بين دولة قيصر ودعوة عيسى حتى لا تختلط الدعوة المقدسة بالدولة المدنسة (Profane).

حركة بولس الرسول:

حورب عيسى وأتباعه بشدة، وحرفت تعاليمه بعد فترة وجيزة من وفاته، وربما كان أشد الناس تحريفا لتعاليمه - ولعله أولهم- شاول اليهودي الذي قاوم النصرانية بعنف وقتل وشرد أتباعها، فلم الم يفض ذلك إلى القضاء عليها أعلن دخوله فيها، ونصب نفسه رسولا للمسيح بناء على رؤيا رآها[[2]](#footnote-2) سنة 53م، ثم غير اسمه إلى بولس ودعا إلى مبادئ يهودية ووثنية كانت منتشرة في أقاليم الدولة الرومانية فأباح أكل لحم الخنزير، والصلاة من غير طهارة، وأدخل تقاليد التعميد، وقدس يوم الأحد وألغى الختان ونظم الرهبنة والعزوبية وأدخل إلى المسيحية القول بالتثليث ومبدأ الحكم باسم الله ونيابة عنه، (يجب على كل واحد أن يخضع للسلطات الحاكمة لأن كل سلطة هي بإذن الله، فالسلطات الموجودة الآن ، الله هو الذي عينها، إذ من يقاوم السلطة يقاوم تدبير الله، الذين يقاومون يجلبون على أنفسهم العقاب، فالحكام لا يخيفون من يعمل الخير، بل من يعمل الشر... وهذا هو السبب أيضا في أنكم تدفعون الضرائب، لان رجال السلطة هم خدام الله عندما يقومون بعملهم)[[3]](#footnote-3) ، إضافة إلى ذلك ، فقد جعل بولس من الكاهن ممثلا لله في كل أمور الناس (كل كاهن أعلى يؤخذ من بين الناس، ويقام كممثل عنهم في علاقتهم بالله)[[4]](#footnote-4)وأمر فئة العبيد الكثيرة العدد في أرجاء الدولة بالخضوع والخنوع لكي يكونوا مؤمنين حقا: (يجب أن يخضع العبيد لسادتهم، وأن يرضوهم في كل شيء ولا يخالفونهم)[[5]](#footnote-5) ولهذا فقد وجد بولس (شاول ) سندا قويا من حكام روما وولاتها وكهنتها، خاصة وأنه قد ألغى العمل بالشريعة لكي لا تبقى هناك أحكام تضايق ما يصدره الحكام،[[6]](#footnote-6) لذلك أصبحت كلماته " كتابا مقدسا " ضمت إلى الإنجيل، وصارت رسائله إلى الكهنة في الأقاليم ذات حرمة وتقديس –إلى اليوم- مثلما للإنجيل من تقديس وتعظيم، فيما بقي النصارى المحافظون يعانون من الاضطهاد والتعذيب لمدة ثلاثة قرون شهد التاريخ خلالها أبشع صور الاضطهاد والقتل والصلب.

تأسيس الكنيسة المقدسة:

عندما اعتلى الإمبراطور قسطنطين العرش سنة 313م وجد الجو مهيئا لكي يؤمن بالمسيحية في شكلها "البولسي" ويعلنها ديانة رسمية للدولة الرومانية، فأصدر بذلك ما عرف بمرسوم ميلانو سنة 313م محاولة منه لتوحيد الإمبراطورية بجمع أتباع النصرانية وأتباع الوثنية في ديانة رسمية جامعة واحدة: هي المسيحية ،فالمرسوم لم يتنكر لديانة الدولة القديمة، ولم يلغ عبادة الإمبراطور التي كانت مصدرا أساسيا لقوة الأباطرة ونفوذهم، كما احتفظ الإمبراطور بالعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها، وحافظ كأسلافه على لقب "الكاهن الأعظم" Ponti Tex maxims،ولقد ظل وفيا أيضا "لإله الشمس" ولم يتخل عن عبادته... ونتيجة لهذا التحالف القوي بين السلطة والكنيسة أصدر الإمبراطور المراسيم القانونية لإعفاء أملاك الكنيسة من الضرائب، فتوجته الكنيسة من تلقاء ذلك "نائبا عن الله في الأرض".

واستمر التحالف بين الإمبراطورية والكنيسة قويا في مواجهة النصرانية المحافظة، وتم تشكيل نظام الإكليروس وفق النظم الإدارية الرومانية[[7]](#footnote-7)،وأصبح للكنيسة أموال طائلة وإقطاعيات شاسعة ومليشيات مسلحة، وسيطرت-طيلة القرون الوسطى-على الدولة وملوكها وساستها وأخضعت المجتمع لنظام صارم يبجل الروح ويلغي المصالح الدنيوية والمادية ويقف في وجه تطور العلوم والمعارف.

وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام لم يبن كنيسة، ولم يؤسس إكليروسا، فإن الكنيسة والإكليروس صارتا بعده من أعمدة المسيحية بحيث لم يعد بالإمكان تصور النصرانية من دونهما .

ولتبرير إخضاع الدولة والمجتمع للكنيسة ،تم تشكيل الفكر وفق مجموعة من الثنائيات أريد لها أن تكون متناقضة متنافرة كثنائية: الدين/الدنيا[[8]](#footnote-8)،الدين/السياسة، الدين/العلم، الروح/المادة، المقدس / المدنس...إلخ والحق أن صياغة الفكر الديني وفق هذه الثنائيات، كانت الشرط الضروري لاستدامة سيطرة فئة الكهنة ورجال الدين على غيرهم بوضع أنفسهم في مرتبة أعلى من مرتبة عامة البشر.

إن استمرار هذا الفصل القاطع طيلة قرون عديدة بين الديني والدنيوي ،أي بين ملكوت السماء المجسد للخير وملكوت الأرض المجسد للشر ، هو الذي أدى إلى عجز الفكر الكنسي عن استيعاب تجدد الحياة وتقدم العلوم، وهو الذي أدى من جهة أخرى إلى تطور الفلسفات والعلوم والنظريات السياسية والاقتصادية منذ عصر النهضة خارج إطار الدين عبر ما أتاحته العلمانية من إمكانات التجديد والابتكار بعيدا عن مقولات العصمة والقداسة.

ونتيجة تداخل عدد من العوامل الخارجية مع الذي ذكرنا [[9]](#footnote-9) ، نشأ صدام عنيف بين الناسوت واللاهوت انتهى - في منتصف القرن السابع عشر- بانتصار الأول على الثاني، وبهذا دشنت العلمانية الأوروبية أولى مراحل عملها بصفتها "سلفية جديدة "تدعو إلىما كان عليه عيسى وحوارييه وإلى ما كانت عليه الديانة النصرانية أيام " صفائها ونقائها " .

تضخم المقدس في التجربة الإسلامية.

والقصد مما تقدم أن نبين كيف تم الخلط بين المقدس والإنساني ،وكيف تم إضفاء صفة القداسة والإطلاقية على أحكام وآراء رجال الدين والسياسة ثم نتسائل: هل كان هذا الانحراف من خصوصيات الديانة المسيحية ولوازمها أم هو نفسه الذي أصاب فئات عريضة من المسلمين في التاريخ؟ ثم هل هو انحراف ولى وانقضت موجباته؟ أم انحراف لا زال مستمرا يلقي بثقله على حاضر الناس ومستقبلهم؟

نبوءات مبكرة:

لعلنا لا نجد جوابا أبلغ من نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم المبنية على إيضاح أحدى سنن الله في الخلق، فالرسول عليه السلام يقولم خبرا ومنبئا ( لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة)[[10]](#footnote-10)،ويقول: (افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى كذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة، قالوا: ومن هي يا رسولالله ؟ قال: هي ما أنا عليه وأصحابي )، [[11]](#footnote-11)وعند الاستقراء ، نجد أن ما كان عليه النبي عليه السلام وأصحابه هو توحيد مصدر المعرفة الدينية ، بينما تشترك أغلب الفرق الباقية في تعدد المصدر الديني، هذا التعدد بالذات هو ما واجهه الإسلام منذ بدايته ، فلفظ الشهادتين اللتان هما عماد الإسلام وعنوانه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) يفيد على أنه لا معبود بحق إلا الله، وأن لا مبلغ بحق عن الله إلا محمد، فلا إمام ولا وصي، ولا وليولا كاهن ، ولا راهب ولا زاهد... ثم إن محمدا نفسه إنما هو رسول بكل ما يحيل إليه لفظرسول من معاني التبليغ والأداء .

ومما ينبغي الانتباه إليه أن تعدد المصدر الديني لا يتضمن فقط إضفاء القداسة والعصمة على الراهب أو الإمام أو الولي، بل يتضمن كذلك أمرا خفيا قد لا يدركه أغلب الناس وهو إضفاء العصمة والإطلاقية على رأى معين بمجرد صدوره عن مستند من نص ديني (ولولم يتم النظر إلى الشخص في ذاته على أنه مقدس أو معصوم)[[12]](#footnote-12) مما يتسبب في خلط الثوابت بالمتغيرات فتضيع مقاصد الدين وتفسد مقومات الدنيا.

إن الأمر ليس بهين، وإنه لمن الخطأ المستجلب للمآسي المستعظمة النظر إلى الأحكام من خلال منظور واحد، فالخلط بين الثوابت والمتغيرات كان سببا لانحرافات تاريخية كان بالإمكان تفاديها لولا وقوعه.

حركة الخوارج:

ويحدثنا التاريخ أن هذا الخلط بالذات هو ما دفع الخوارج إلى تكفير الناس وسفك دمائهم وإعلان الحرب عليهم عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها، ورغم أنهم كانوا أصحاب صلاة وصيام وورع ، إلا أنهم تخطوا باجتهاداتهم تخطئة الغير إلى تكفيره ومحاربته فالتبست عليهم حدود منطقة الثوابت التي يضلل منتهكها أو يكفر، ومنطقة التغيرات التي يؤاخى المخطئ فيها ويعذر[[13]](#footnote-13)، واعتبروا آرائهم في الدين هو عين الدين ، واجتهاداتهم في الشريعة هي ذات الشريعة حتى أوصلهم ذلك إلى قطع الطريق وقتل المسالمين محتسبين الأجر عند الله.

يروي ابن الأثير ضمن أحداث سنة 38 هـ أنهم رأوا عبد الله بن خباب يسوق زوجه على حمار فأوقفوه وسألوه: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم... ثم سألوه عن رأيه في أبي بكر وعمر وعثمان، فأثنى على الجميع خيرا، فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا...فذبحوه، فسال دمه في النهر، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: أنا امرأة ألا تتقون الله؟ فبقروا بطنها وقتلوها ، فلما بلغ عليا ذلك وبلغه اعتراض الناس من طرفهم واستجوابهم ، بعث إليهم الحارث بن مرة ليأتيهم وينظر ما بلغه عنهم، ويكتب به إليه، فلما دنا ابن مرة منهم يسائلهم قتلوه.[[14]](#footnote-14)

والذي يجب أن ينال حظه من التفكير والتأمل، هو أنهم في طريقهم وهم يقودون عبد الله بن خباب وزوجه سقطت من نخلة تمرة، فأخذها أحدهم وجعلها في فيه، فقال آخر: أخذتها بغير حلها وبغير ثمن؟ فألقاها.[[15]](#footnote-15)

إنهم تورعوا عن أكل تمرة بغير إذن صاحبها ولم يتورعوا عن اعتراض الطريق وسفك الدماء، ولم يكن في منطقهم ما يدعو للاستغراب من هذه المفارقة، إذ الحالة الأولى بالنسبة لهم حالة سرقة وخيانة، والحالة الثانية حالة دفاع عن الحق وجهاد يؤجرون عليه عند الله.

لم يكن ينقص الخوارج عموما الإخلاص للدين ولا محبته والغيرة عليه، ولكن نقصهم الفهم السليم والإدراك القويم فأفسدوا في الأرض وهم يعتقدون أنهم يحسنون صنعا.

وهكذا حاربوا عليا وابنه الحسن وقاتلوهما بسبب اختلافهم معهما في مسائل ليست من ثوابت الدين وركائزه، بل من متغيرات الدنيا ومستجدات السياسة[[16]](#footnote-16) ، كل ذلك بتبريرات دينية، واستشهادات قرآنية .

إن عدم إدراك الفوارق الدقيقة بين قطعيات الدين وظنياته، وبين الدين والتدين[[17]](#footnote-17)تسبب ولا يزال في مآس تاريخية خطيرة – تكرر نفسها- تارة بين السنة والشيعة[[18]](#footnote-18) وتارة بين الشافعية والحنفية، وثالثة بين المسلمين والنصارى، ورابعة وخامسة...إلخ.

محنة خلق القرآن:

ويحدثنا التاريخ أن محنة خلق القـرآن إنما كان سببها الاقتناع برأي اجتهادي على أنه وحده الحـق وإقصاء الآراء الأخرى بصـفتها باطـلا يجب التقرب إلى الله بمـحاربة أصـحابه والتـضييق عليهم.

والذي عمل على إثارة مسألة خلق القرآن هم نصارى دمشق وعلى رأسهم يوحنا الدمشقي الذي كان يناظر المسلمين بأن عيسى هو الله، ويستدل بما جاء في القرآن من أن عيسى بن مريم هو كلمة ألقاها الله إلى مريم، ويسأل المسلمين: هل كلمة الله قديمة أم لا؟ فإن قالوا: لا،فقد قالوا إن القرآن مخلوق، وإن قالوا قديمة ادعى بأن عيسى قديم وبالتالي فإنه هو الله[[19]](#footnote-19).

ومن أجل مواجهة هذه الأفكار التي كان تعتبر مهددة للعقيدة الاسلامية، ظهر القول بخلق القرآن على يد الجهم بن صفوان والجعد بن درهم وغيرهما ، وهو وما اعتمده المأمون[[20]](#footnote-20)،لكن الأمر لم يقف عند مجرد الاجتهاد وتبادل الرأي، بل تجاوز ذلك سنة218هـ إلى أن يفرض المأمون القول بخلق القرآن بالقوة انطلاقا من أنه هو القول الحق، وهو دين الله ومواريث النبوة وأثر العلم، وسواه ضلالة عن حقيقة الدين وتوحيده ونكوص عن واضحات أعلامه.

يرسل المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره فيها بامتحان القضاة والمحدثين في هذه القضية: (... أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم...وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ،ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة الدين وتوحيده والإيمان به ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله.... وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين ،واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحده ويخترعه، وقد قال الله عز وجل قي محكم كتابه **﴿إنا جعلناه وقرآنا عربيا﴾**[[21]](#footnote-21)، فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال:**﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور﴾**[[22]](#footnote-22)**﴾**[[23]](#footnote-23)

ومن هنا فسائر المخالفين ضلالا زائغين ، لأنهم خالفوا الحق المبين فضلوا وأضلوا ، ولم يتم النظر للأمر على أنه اجتهاد كاجتهاد الصحابة لا ضير على الإنسان في الخطأ فيه، وهو ما أومأ إليه علي بن أبي مقاتل- حينما استدعاه إسحاق بن إبراهيم- الذي قال: (قد يكون قوله "أي المأمون" كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها)[[24]](#footnote-24)

وفي رسالة أخرى للمأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يقول فيها (... وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين، ولا نصيبا من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة، ولا صدق في قول ولا حكاية، ولا تولية شيء من أمر الرعية، وإن ظهر قصد بعضهم وعرف بالسداد مسدد فيهم، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ومحمولة في الحمد والذم عليها، ومن كان جاهلا لأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جهلا، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلا).[[25]](#footnote-25)

ويبدو أن هذا من المأمون لم يكن ناشئا عن حب جاه أو سلطان، أو انفراد بالسلطة أوطغيان، بل كان منشؤه إيمانيا خالصا، وغيرة على الدين واضحة، لكن مع سوء فهم وقلة علم أضاعت مقاصد الدين ومرامي الشريعة، فكانت محنة أحمد بن حنبل التيأفاض التاريخ في الحديث عنها.

هذا الأسلوب المأموني لم يكن شاذا في تاريخ الخلافة، بل نقيضه هو الشاذ الذي لا يقاس عليه ،حتى أن برهان غليون ليقول عن حق: (كان السلطان.. مسؤولا أمام الله، ومن يكون مسؤولا أمام الله لا يمكن أن يكون مسؤولا أمام العبد أو أن يقبل السؤال أمام الرعية، حتى كادت مخالفة السلطان تتحول مهما كان ظلمه أو كفره إلى مخالفة الدين، وفي هذه الحالة ليس أمام الناس من وسيلة لمقاومة الظلم إلا الإرجاء والدعاء على الملوك أولهم... فبديل ذلك كما قال بعض الفقهاء الفتنة المدمرة، وهذا هو الذي جعل الأدبيات السياسية الإسلامية، بصفة عامة أقرب إلى فلسفة النصيحة منها إلى العلم السياسي الحقيقي).[[26]](#footnote-26)

العرفان الصوفي:

والمتأمل في تجربة الطرق الصوفية ليلحظ نشوء منهج جديد على روح الإسلام منذ فترة مبكرة من تاريخ التصـوف ،هو منهج الحـقيقة الذي زاحـم منهج الشـريعة أحيانا وأقصـاه في معـظم الأحيان.

وهذا المنهج يقوم على مبادئ الذوق والإلهام مما مكن كثيرا من شيوخ الطرق من الإدعاء أنهم على صلة مباشرة بالله أو برسله، وبذلك أصبحت إلهامات الشيخ وأحلامه هي مصادر العلوم والمعارف الدنيوية والأخروية.[[27]](#footnote-27)

ولقد أصاب هذا المنهج الإلهامي الصوفي نجاحا في أغلب مناطق العالم الإسلامي وتطور لكي يشكل لنفسه بناء فلسفيا متكاملا يقوم على إلغاء العقل وإقامة "الذوق" مكانه، وبذلك يصبح الذوق هو نقطة بداية المريد والمتعلم الذي يرتقي به في المقامات حتى يصبح شيخا، ثم غوثا أو قطبا، ثم يرتقي إلى أن يرى نفسه أهلا لأن يكون "هو الله"، وحينما يرتفع به ذوقه إلى هذا "المقام" نجده لايتردد في إعلانه على الناس في مجالسهم ومنتدياتهم بصيغ تتفاوت بحسب الظروف والمناسبات، فمرة يفهمهم أنه "ما في الجبة إلا هو ،" ومرة يصيح "أنا الله"، ويترك مريديه بين محتال في تأويل كلامه، ومحتار من هول ما سمعه.

وبهذه الوسيلة منح الشيوخ والأولياء والأقطاب والأغواث... لأنفسهم سلطانا روحيا قويا مهيمنا ، بحيث لم يكن يصح أن يظل المؤمن بغير شيخ ، فـ "من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان"، وهذا الشيخ هو الذي يتعهد مريده منذ بداية السلوك فيمنحه الإذن في ذكر ربه بأوراد وأذكار هو من يحددها له، وينبغي أن يكون المريد بين يدي شيخه ، كالميت بين يدي غاسله لأنه الأعلم بحاله وما يصلحه، وبدينه وما يستقيم به، فالشيخ بذلك هو صاحب السلطة الروحية المهيمنة التي لا يصح السير إلى الله بدونها.

بل كثيرا ما استمرت وصاية الشيخ وسيطرته على الأتباع حتى بعد موته،فيقدس قبره ويعظم مزاره، وتشد إليه الرحال، وتقام له المواسم، ويرجى في الملمات والمهمات.

العصمة الإمامية:

حينما نولي وجهنا شطر الشيعة نجد نفس المنهج في إضفاء القداسة على آراء البشر أو ذواتهم، فالشيعة الإمامية الإثنا عشرية[[28]](#footnote-28)يجعلون من الإمامة ركنا سادسا إلى جانب أركان الإسلام الخمس، والإمامة عندهم نظام ديني سياسي يقوم على عصمة الإمام ،وأنه مختار من الله، وما دام الإمام غير موجود منذ اختفاء الإمام الثاني عشر في سرداب سامراء، فإن الحاكم غير المعصوم ولا المقدس يكون نائبا عنه[[29]](#footnote-29)

وقد عمل الشيعة الإمامية عبر العصور على إثبات العناصر التسع الآتية:

1. الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام.
2. معرفة الأئمة والتسليم بهم شرط الإيمان.
3. الأئمة هم المقصودون بالنور الذي نزل في القرآن ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾.[[30]](#footnote-30)
4. للأئمة حرية الاختيار في التحليل والتحريم.
5. الأئمة معصومون كالأنبياء.
6. المؤمنون بإمامة الأئمة المعصومين لهم الجنة حتى لو كانوا عصاة.[[31]](#footnote-31)
7. درجة الأئمة تتساوى مع درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أفضل وأعلى من جميع المخلوقات .
8. الأئمة يعلمون الغيب.
9. أعمال العباد تعرض على الأئمة.[[32]](#footnote-32)

ومن فرق الشيعة من قالت بتناسخ الأرواح، ومنها من قالت بتأليه علي أو غيره من الأئمة حتى أن من أئمة بعض فرق التشيع من لم يجد حرجا من أن يقول بإباحة إتيان الرجال بعضهم بعضا مؤكدا أن ذلك من التواضع والتذلل وأنه إحدى الشهوات الطيبات، وأن الله لم يحرم من ذلك شيئا.[[33]](#footnote-33)

ولا يحسبن أحد أن هؤلاء الأئمة ينطلقون في إدعاءاتهم من فراغ، بل إنهم يعتمدون على الآيات البينات في التدليل على أهوائهم فيتبعهم الناس بناء على ذلك معتقدين أنهم يتبعون صحيح الدين وسليم العقيدة.

فالخطابية الذين أباحوا قتل المسلمين وأخذ أموالهم احتجوا بقوله تعالى: **﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾**،[[34]](#footnote-34) وهم الذين حينما أرادوا نشر الإباحية والزنا والفساد وترك الصلاة والصيام احتجوا بقوله تعالى: **﴿يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفا﴾**[[35]](#footnote-35) وقالوا: خفف عنا بأبي الخطاب ووضع عنا الأغلال والآصار ،يعنون الصلاة والصيام، فمن عرف الإمام فليصنع ما أحب[[36]](#footnote-36)،والخرمدينية الذين آمنوا بتناسخ الأرواح واحتجوا بقوله تعالى: **﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾**[[37]](#footnote-37) وبقوله تعالى: **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾**[[38]](#footnote-38) وقوله تعالى: **﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾**[[39]](#footnote-39)،فقالوا إن جميع الطير والدواب والسباع كانوا مما خلت فيهم نذر من الله عز وجل، فمن كان منهم صالحا جعل روحه بعد وفاته وإخراب قالبه وهدم مسكنه إلى بدن صالح فأكرمه ونعمه، ومن كان منهم كافرا عاصيا نقلت روحه إلى بدن خبيث مشوه لكي يعذب فيه.[[40]](#footnote-40)

وقد تمكن الأئمة بفعل ما أتيح لهم من جهل الناس بسنن الله في الكون ،ومن القداسة التي أضفوها على ذواتهم وأهواءهم من تخدير عقول الناس وتكبيل عزائمهم، حتى لم يعد منهم من يرجع في شيء من أمر دينه أو دنياه إلا لهم،يروي الحسن بن موسى النوبختي[[41]](#footnote-41) أن أحد أئمة غلاة التشيع وهو محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات لما حضرته الوفاة-وكان قد اعتل لسانه-سئل: لمن هذا الأمر من بعدك؟ فقال: لأحمد، فلم يدروا من هو، فافترقوا ثلاث فرق، فرقة قالت: هو أحمد ابنه، وفرقة قالت هو أحمد بن بشر بن زيد، وفرقة قالت: بآخر فتفرقوا فلا يرجعون إلى شيء[[42]](#footnote-42).

وقد انبثقت عن هذه الفرق وتولدت منها فرق انتشرت في العالم ولبست لبوس الحداثة والعصرنة كالعلوية والقاديانية والبهائية والبابية... إلخ ، كلها تتمركز حول الإمام المعصوم ، وتمنحه صلاحيات التشريع والتحليل والتحريم وألقاب التعظيم والتقديس[[43]](#footnote-43) وتجعله مصدرا للدين والتدين.

الدروز وتأليه الحاكم:

والدروز أيضا، فإذا نحن نظرنا إلى طائفة الدروز التي ظهرت بالشام في أوائل القرن الخامس الهجري، وجدنا غلوهم في تقديس الإنسان أشد، حيث يعتمدون صراحة على فكرة تأليه "الحاكم" في صور وأشكال أقرب ما تكون إلى ما كان عليه نظام الحكم في العهد الإمبراطوري الروماني القديم.

أصل معتقدهم أنه لا يمكن للإنسان أن يتجه بعبادته إلى كائن مجرد، ومن ثم كان من الضروري أن يحل الله المجرد في واحد من أشرف مخلوقاته؛ الإنسان.

وبما أن الحاكم عندهم ينفرد بامتلاك خاصيتيالناسوت واللاهوت،فهم يتجهون إلى عبادته باعتبار ما فيه من لاهوت (ويرون أن علاقة اللاهوت بالناسوت في شخص الحاكم كعلاقة المعنى بالخط في الكتابة)، ونجـد في ميثـاق "ولـي الزمـان" تعبيرا واضحا عن عقيدتهم في تأليه الإنسان –الحاكم- وهذا الميثاق عبارة عن عهد وضعه حمزة بن علي بن أحمد إمام دعوتهم[[44]](#footnote-44)،ولا يزال معتمدا من طرف الدروز إلى الآن حيث يقسم به الوارد حين دخوله في "سلك العقال"، ونجد فيه:

(توكلت على مولانا الحاكم الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان بن فلانة... إقرارا أوجبه على نفسه وأِشهد به على روحه، وهو في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره طائعا غير مكره ولا مجبر، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والمعتقدات... على اختلاف أصنافها، وأنه لا يعرف شيئا غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره، والطاعة هي العبادة، وأنه لا يشرك في عبادته أحدا مضى أو حضر أو ينتظر... ومن أقر أن ليس في السماء إله معبود، ولا في الأرض إله موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين).[[45]](#footnote-45)

إنه نفس الداء العابر للقارات والمذاهب والتيارات ، والمستمر على مر العصور والأزمانوإن اختلفت أعراضه وأشكال التعبيرعنه ..إنه تضخم المقدس والاستجداء به في تبرير القول والعمل الإنسانيين النسبيين وتمريرهما دونما تحقق ولا فحص ، فلا يبق أمام المتلقي إلا إظهار الإذعان ، أو إعلان المعركة ، وفي الحالتين معا يتراجع العقل وتتقدم مشاعر الخوف وغرائز القهر .

القانون:

لا بد من مقدس جامع مطلق ، يحدد الرؤية ، ويحفـز الإرادة ، ويوحد المجتمعات ، فالحق والعدل والسلام ، كلها مفاهيم مقدسة مطلقة ، قد يتم التعبير عنها من خلال حاجات الناس الثابتة إلى الأمانة والنزاهة والمساواة وتكافـؤ الفرص ، وتلك كلها ، ومعها غيرها، وإن كانت تستحق أن توضع موضع البوصلة الموجهة ، فإن تمثلات الناس ومساعيهم ،ولو في اتجاهها ومن أجلها ، كل ذلك غير مقدس ولا معصوم ، بل إنساني خاضع لسياقات الاجتماع وتحولات الواقع ، فكيف إذا مال بهم التعصب أو طاشت بهم الأهواء ؟

لا بد من التمييز إذن ، ولا بد للتمييز من معايير ، ولا بد للمعايير من تحيين يقربها إلى أفهام الناس في حياتهم اليومية المتغيرة باستمرار .

 ولعل أول ما ينبغي أن يتناوله التمييز تصرفات الأنبياء ، فهم المبلغون عن الله تعاليمه المطلقة ، لكنهم أيضا هم المجتهدون في تنزيل ما وردهم على واقع تتبدل مقتضياته باستمرار.

بدأ النظر في التصرفات النبوية ومدى إلزاميتها منذ العهد النبوي،ثم كان للخلفاء الراشدين بعد ذلك اجتهادات فقهية ملائمة لتحديات واقعهم، وبعدهم استمر اجتهاد الأئمة الأعلام أبرزهم مالك[[46]](#footnote-46) والشافعي[[47]](#footnote-47)وإمام الحرمين الجويني[[48]](#footnote-48)...إلا أن النقلة الكبيرة في هذا الموضوع كانت بظهور الإمام شهاب الدين القرافي[[49]](#footnote-49)صاحب كتاب الفروق المسمى " أنوار البروق في أنواء الفروق " [[50]](#footnote-50)، ففيه وضع أسس التمييز بين تصرف وآخر من تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم،ولا شك أن هذه الأسس التي وضعها القرافي كانت تحتاج لمزيد بيان وتحيين عبر العصور،وذلك ما عمل عليه ابن القيم[[51]](#footnote-51) في زاد المعاد وإعلام الموقعين،وبدر الدين الزركشي[[52]](#footnote-52)في البحر المحيط، وولي الله الدهلوي[[53]](#footnote-53) في حجة الله البالغة، ورشيد رضا [[54]](#footnote-54) في مجلة المنار، والطاهر بن عاشور[[55]](#footnote-55) في مقاصد الشريعة.. ولا زالت اجتهادات العلماء تترى إلى اليوم وأغلبها تتجه إلى مزيد من التفريع والتدقيق، إلا أن ألزم العلماء اليومبهذا الموضوع وأكثرهم عناية وتعلقا به هو الدكتورسعد الدين العثماني صاحب "التصرفات النبوية السياسية"[[56]](#footnote-56)و"الدين والسياسة تمييز لا فصل" [[57]](#footnote-57) ولا شك أن مزاوجة الرجل بين البحث العلمي والعمل السياسي[[58]](#footnote-58)قد أتاح له الوقوف على كثير مما لم يستطع غيره الوقوف عليه من تفاصيل في السياسة والتشريع وعلاقتهما بقيم الإسلام وجزئيات الاحكام،وهو يرى أن التمييز بين الديني والسياسي هو الأصل في فكر المسلمين، وأن الغفلة عن هذا التمييز هو من مخلفات عصور الانحطاط والجمود، وهو أيضا من تأثيرات الفكر الكنسي على تفكير المسلمين [[59]](#footnote-59)، لذلك أضحى العلم بالتصرفات النبوية من أهم مداخل الإصلاح في البلدن العربية والاسلامية اليوم، فبه تتم الاستجابة لتحديات النهضة في العالم المعاصر**[[60]](#footnote-60)**.

ولنبدأ مما ينبغي البدء به:

نبه القرآن إلى السبب الذي أدى إلى انحراف أهل الأديان وأبان أنهم:**﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾**[[61]](#footnote-61) أي أنهم جعلوا من علمائهم وعبادهم آلهة يتبعونها في كل شيء[[62]](#footnote-62) حيث منحوهم حق الحديث باسم الله ونيابة عنه، واعتبار ما أحلوه لهم حلالا من عند الله، وما منعوه هو الحرام، فكان ذلك تأليها لهم، ولذلك ورد الحديث عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة براءة**﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾** فقال: **﴿أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكن كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه﴾**.[[63]](#footnote-63)

ويبين القرآن أن الرسل جميعها جاءت تدعو لاجتناب الطاغوت، وأن عبادة الله لا تتحقق إلا باجتنابها**﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**[[64]](#footnote-64).والطاغوت عند كثير من المفسرين هو كل ما يعبد من دون الله، إلا أن للسيوطي في إتقانه تخصيصا هاما حينما يرجع كلمة "طاغوت" إلى أصلها الحبشي ويقول إنها هي الكاهن،[[65]](#footnote-65) ولا يختلف المعنيان ما دام أصل البلاء يأتي من كهنة وسدنة يشركون أنفسهم مع الله في التشريع الديني.

ولهذا لما دعا القرآن أهل الكتاب إلى الكلمة السواء جعل من ممهدات تحقيقها وإنجاحها **﴿ألا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾**[[66]](#footnote-66) فدعا المسلمين إلى أن يشترطوا على الآخرين ما اشترطوه على أنفسهم من الامتناع عن تقديس البشر واتخاذهم أربابا وأسيادا يشرعون نيابة عن الله ويحللون ويحرمون.

وفي موقع آخر من القرآن، وبعدما بين الله ما حرم من المآكل:**﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾**[[67]](#footnote-67) يضيف **﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾**[[68]](#footnote-68)،فاتضح أن ليس للإنسان في دين الاسلام أن يحل أو يحرم،فإن فعل كان كاذبا متقولا على الله.

وقد ربى الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته على التفريق بين حكم الله وحكم الإنسان حتى لو كان هذا الإنسان هو الرسول نفسه عليه السلام (إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له بقطعة من النار)[[69]](#footnote-69)،وحتى لو كان هذا الإنسان أحد أمراء الرسول صلى الله عليه وسلم في الحرب، وتثبت كتب الحديث أن الرسول عليه السلام نهى أميره بريدة[[70]](#footnote-70) أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله، وقال له (فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، ولكن أنزلهم على حكمه وحكم أصحابك).[[71]](#footnote-71)

ولهذا، وفي سعيهم لهذا التمييز ، كان الصحابة يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عما استشكل عليهم من أوامره، فقبيل معركة بدر، وبعد إنزال الرسول صلى الله عليه وسلم الجيش في مكان حدده له، أتى الحباب بن المنذر[[72]](#footnote-72) يسأله عليه السلام قائلا: (أرأيت هذا المنزل أمنزلاأنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟).[[73]](#footnote-73)

ولقد كانت للصحابة حساسية شديدة في هذا الشأن حتى أنه لما خوطب أبو بكر بـ (يا خليفة الله) قال: "لا،إنما أنا خليفة رسول الله"[[74]](#footnote-74)،وحتى أنه لما كتب الكاتب بين يدي عمر (هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر) نهاه عمر وقال: لا تقل هذا، ولكن قل: هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[[75]](#footnote-75) وهذا حرصا على ألا يضفى طابع المطلق على رأي عمر.

ولهذا نسب ابن القيم إلى السلف قولهم: (ليتق أحدهم أن يقول: أحل الله كذا وحرم كذا، فيقول الله له: كذبت لم أحل كذا، ولم أحرم كذا، فلا ينبغي أن يقول لما لا يعلم ورود الوحي المبين بتحليله أو تحريمه أحله الله وحرمه الله لمجرد التقليد أو التأويل).[[76]](#footnote-76)

ولأنهم كانوا يدركون خطورة "التوقيع عن رب العالمين" فإن كل أحد منهم يود لو أن أخاه كفاه الفتيا، وقال أبو داود في مسائله: (ما أحصي ما سمعت أحمد سئل عن كثير مما فيه الاختلاف في العلم فيقول: لا أدري، قال: وسمعته يقول: ما رأيت مثل ابن عيينة[[77]](#footnote-77)، في الفتوى أحسن فتيا منه، كان أهون عليه أن يقول: لا أدري.

وسأل رجل من أهل الغرب الإمام مالك عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال: يا أبا عبد الله، تقول: لا أدري؟ قال: نعم، فأبلغ من وراءك أني لا أدري، وكان يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحدا أقتدي به فيقول في شيء هذا حلال وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسنا).[[78]](#footnote-78)

من خلال كل هذا نلاحظ تمييزا واضحا بين المطلق والنسبي وحرصا شديدا على ألا يختلط أحدهما بالآخر، بل إن القرافي في "الفروق" ليطور النظر إلى الحديث النبوي ويجدد طرق التعامل معه على هذا الأساس، فهو يفصل كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وتصرفاته إلى أربع:

* كلامه عليه السلام وتصرفه بالتبليغ والرسالة.
* كلامه عليه السلام وتصرفه بالقضاء
* كلامه عليه السلام وتصرفه بالفتوى.
* كلامه وتصرفه بالإمامة.[[79]](#footnote-79)

فكل ما قاله أو فعله عليه السلام على سبيل التبليغ كان حكما مطلقا ثابتا عاما إلى يوم القيامة لا يتبدل منه شيء، وكل ما فعله أو قاله أو أقره بوصف الإمامة ، أحيل الأمر فيه إلى أولياء الأمور يتصرفون فيه وفق مصالح الأمة، وكل ما قاله أول فعله بوصف الإفتاء أحيل الأمر فيه إلى المفتي فينظر إلى حال المستفتي وظروفه، وكل ما فعله أو قاله بوصف القضاء بين الناس ،ينصرف الأمر فيه إلى القاضي فينظر فيه ويراعي ظروف تخفيف العقوبة أو تغليظها، أو الحكم لهذا الطرف أو ذاك تبعا لمصلحة المجتمع.

وهكذا، فإن الإسلام قد جاء ضد فكرة تقديس الإنسان لأنها فكرة تحتجز الإنسان وتجمده فلا تترك له مجالا لابتكار ولا لتجديد، إن القداسة هي لله وحده، فإن هي منحت لغيره معه، صار ذلك شركا.

والخلاصة أن أحد أهم مصادر التجديد والتطوير في الإسلام هو في ذلك التمييز بين السماوي المطلق، والأرضي النسبي مع عدم إقامة أي قطيعة بينهما، لأن ذلك يعني انتفاء العلاقة والتفاعل.

ولقد أفاد علماء الأصول كثيرا في هذا الاتجاه فميزوا بين عبارة النص وإشارته وبين الأحكام القطعية والأحكام الظنية، وبين النصوص قطعية الثبوت والنصوص ظنية الثبوت، وتحدثوا عن المصالح وضوابطها ، والضرورات ومقاديرها...إلا أن حاجتنا إلى التمييز السريع والفعال بين مجال المطلق ومجال النسبي ،لا زالت قائمة.

وأطروحتنا في هذا الميدان تتلخص في جمع لبنات ما تفرق في مباحث علوم الأصول والمقاصد والتاريخ وإعادة ترتيب كل ذلك بطريقة منهجية توصلنا إلى حل إجرائي عملي يجعلنا نأمن الخلط.

ويتلخص هذا الحل في أنه لا قدسية ولا عصمة لفكرة أو حكم أو تشريع إلا إذا توافرت فيه شروط أربعة:

**1. قطعية الثبوت:** أي أن يستمد الحكـم من نص موثق قطعي التوثيق، وهذا منحصر في القرآن الكريـم وما تـواتر من الأحاديث النبوية، والتواتر يرفع توثيق النص من الظني إلى القطـعي، ولا يجـوز لشخـص أن ينسب لله حكما عن طريق نصوص ظنيـة قد يكون هـو أول من يشك في ثبـوتهـا.

**2.قطعية الدلالة:** أي أن يرد النص بغرض بيان حكم معين، ويكون هذا البيان واضحا لا يحتمل غيره، فإن احتمل النص وجهان أو أكثر، لزم الاجتهاد في ترجيح وجه على آخر، فإن تم الاجتهاد ينبغي ينسب لصاحبه لا إلى الشريعة، إذ الاجتهاد اجتهاد، والوحيوحي، ولا يصح الخلط بينهما بحال.

**3**. **الصفة:** أي أن يكون الحكم واردا بصفة الرسالة والتأبيد، فقد يكون النص قطعي الدلالة والثبوت ،لكنه لم يأت بصفة التبليغ عن الله على وجه التأبيد، بل بصفة التصرف بالإمامة أو القضاء، ولا يصح أن ينسب إلى الدين إلا ما ورد بصفة الدين، لا بصفة التدين.

**4**. **انتفاء الضرورة:** إذا حلت الضرورة انتفى التكليف بالحكم[[80]](#footnote-80)، وقد يكون الحكم قطعيا والتكليف به ظنيا، إذ كما تتفاوت حالات الضرورة قوة وضعفا، فكذلك يتفاوت الإلزام بالتكليف قوة وضعفا من شخص لآخر ومن ظرف لآخر...فينشأ الاجتهاد في التقدير والتقرير والتعيين، ولا يكون الاجتهاد إلا معبرا عن حكم الإنسان في النازلة.

وهكذا ، فإن أي قول او فعل أو تشريع لن يستقيم أمره ولن يتماشى مع قوانين الحياة وسنن الوجود إلا بالاعتماد على التمييز الدقيق والكامل بين المقدس والإنساني[[81]](#footnote-81)،أي بين أحكام الله وقوانينه في الوجـود، وتفسيرات الانسان وتشريعاته في الدولة ومؤسسـاتها، لئـلا يقع خلط ينتجعنه تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحـل انطـلاقا من رأي أو فـهم شخصـي ينسب إلى الله تعالى.

وبهذا المنهج يمكننا من فهم القانون المتحكم في المسارات الفكرية والسياسية لدى كل المجتمعات البشرية التي لا تستغني عن المقدس ولا عن الاجتهاد الحر والابتكار.

ولقد صغنا هذا القانون في شكل حقلين أنتجا ثنائيتين أي خلط بينهما عن قصد أو غير قصد يؤدي حتما إلى انحرافات ومآسي خطيرة.

**الإنسـاني**

**الصواب**

**الخطأ**

**المــقـدس**

**الـحــق**

**الـباطــل**

واحد إذن هو منهج التفكير الذي أدى إلى انحراف الكنيسة واضطهادها لمخالفـيها، وهو الذي أدى كذلك إلى خـروج الخـوارج ، وإلى محـنة خلق القرآن، إلى غير ذلك من المآسي المتعلقة بسوء فهم الدين وتأويله ، وهو الخلـط بين عناصر الحقلـين ، ومكونات الثنائيتين.

إنه الانحراف نفسه، وقع هناك فكانت عبودية الإنسان للكهنوت ولرجال الدين، ووقع هنا فكانت عبوديته للأئمة والخلفاء والأقطاب والزعماء (أحياء أو رفاتا في قبورهم) ، وخفي عن الناس أن أصل الانحراف واحد ، وهو ما اصطلحنا على تسميته بتعدد المصدر الديني الذي هو أصل الشرك ومنبعه ،والنتيجة واحدة وهي تحريف الدين، وإفساد الدنيا بالدين، حيث تبرير التسلط والظلم بالحجج من كلام الله، وتبرير الانحراف وسفك الدماء بالجهاد أو مواجهة الهرطقة والزندقة.

فيجب على أي تفكير منهجي سليم أن يتصرف وفق قانون النص والتنزيل ولا يجعل منطقة الباطل تكتسح منطقة الخطأ مثلا، ولا منطقة الصواب تكتسح الحق.

إن دائرة الحق تشمل الخطأ والصواب ،على أن المصيب يجب ألا يخرج المخطئ من دائرة الحق فيكفره أو يفسقه، ولا يخلط بين صاحب الخطأ وصاحب الباطل، فالأول مأجور والثاني آثم، وأي خلط بينهما يفسد الدين ويفسد به، كما سبق بيانه ، على أن دائرة الحق قد تشمل الرأي المصيب والرأي الأصوب حسب تفهم المجتهد لقضايا مجتمعه وتجاوبه مع قضايا واقعه.

إن إقامة علاقة صحيحة وعلمية بين الثنائيتين تعيننا على حصر الخلاف، وهل هو خلاف في الثوابت على صعيد المقاصد والقيم والأصول الكلية ، أم هو خلاف في المتغيرات على صعيد الرأي والفقه والسياسة، وبالتالي إنارة الطريق وتوضيح مجال العمل وحدوده، وتسمية كل مجال باسمه الحقيقي، ووصفه بصفاته الخاصة لا بصفات شبيهه، مما يحول دون خلط الأوراق وتحريف المعاني وتمييع الحدود ، مع ما يستتبع هذا التمييع من تأليه للإنسان وتصنيم للمفاهيم .

وتبعا لهذا، فإننا حينما نتحدث عن العقيدة أو الشريعة أو القيم يجب أن نتحدث داخل حدود خاصة معلومة لها مصطلحاتها الخاصة المعلومة، فمصدر العقيدة هو الله عز وجل، والحاكمية له لا لغيره، إذ لا تشريع إلا له ولا حاكم إلا هو.

فهو الذي أمر بالصلاة والزكاة والصيام على وجه التعبد، وهو الذي أمر بالعدل والإحسان واللاإكراه والشورى... على وجه السياسة، وهنا فقط مجال استعمال الثنائية الأولى: الحق/الباطل فمن أنكر الصلاة عبادة، أو أقر الإكراه سياسية، أو رفض الحرية وتكافؤ الفرص تشريعا، كان على الباطل حتى يهتدي إن شاء.

أما حينما نتحدث عن الفكر، أوالفقه أو التشريع المدني، أو التدبير السياسي والاجتماعي ، فإننا نكون داخل حقل آخر له مجاله المعلوم وحدود المعلومة، مصدره الإنسان، فهو الحاكم،وهو المشرع،وهو صاحب الحاكمية .

فالحقل الأول إذن حقل ثوابت والتصرف فيه ابتداع، والحقل الثاني حقل متغيرات والتصرف فيه إبداع،وهكذا نضع ثوابت الدين والسياسة ضمن حدود الحقل الأول،ونضع متغيراتهما ضمن حدود الحقل الثاني، فتكون النتيجة هي ضرورة الفصل التكاملي بين الثوابت والمتغيرات، وبين المقدس والتنزيل الإنساني عبر الآليات الأربع المعروضة أعلاه.

1. - نجد في إنجيل متى منسوبا إلى قول عيسى: (لا تظنوا أني جئت لأنسخ الشريعة أو أقوال الأنبياء، أنا جئت لا لأنسخها بل لأكملها، أقول لكم الحق، ما دامت السماء والأرض موجودة، فلن يسقط من الشريعة حرف واحد ونقطة واحدة، بل يتم كل شيء) إنجيل متى، إصحاح:17-18. [↑](#footnote-ref-1)
2. - مما نسب إلى الإنجيل قصة "اهتداء" شاول المفاجئة: (... وكان شاول مازال ينفث التهديد والقتل ضد تلاميذ الرب، فذهب إلى الكاهن الأعلى وطلب منه رسائل إلى الجوامع التي في دمشق لكي يقبض على الذين يجدهم من أتباع الطريق... وبينما هو مسافر، وكان قد اقترب من دمشق فجأة أبرق حوله نور من السماء فوقع على الأرض وسمع صوتا يقول له: يا شاول، ياشاول، لماذا تضطهدني فقال شاول: من أنت يا رب؟ فأجابه: أنا عيسى الذي أنت تضطهده، قم وادخل المدينة فيخبروك بما يجب أن تعمله) أعمال الرسل: 9. [↑](#footnote-ref-2)
3. - رسالة بولس إلى المؤمنين في روما:13 [↑](#footnote-ref-3)
4. - الرسالة إلى المؤمنين العبرانيين: 5 [↑](#footnote-ref-4)
5. - رسالة بولس إلى تيتوس: 2 [↑](#footnote-ref-5)
6. - مما قاله بولس وألحق بالإنجيل: (إن القانون يسري على الإنسان وهو حي فقط، فمثلا المرأة المتزوجة مرتبطة قانونيا بزوجها ما دام حيا، لكن إن مات الزوج تكون غير مقيدة بعقد الزواج... ونفس الشيء بالنسبة لكم يا إخوتي... فقد تحررنا من الشريعة لأننا متنا بالنسبة للشيء الذي كان يقيدنا، لذلك نحن نعبد الله بطريقة جديدة، بالروح ، وليس بالطريقة القديمة حسب الفرائض المكتوبة) رسالة بولس إلى المؤمنين في روما:7. [↑](#footnote-ref-6)
7. - في هاته الظروف ، ظهرت شخصية أريوس الداعية إلى إرجاع النصرانية إلى أصولها الأولى وتنقيتها من شوائب الوثنية، ظهر أريوس في المنطقة الشرقية من الأراضي الليبية، وكان له أتباع عارضوا بقوة تقديس الإمبراطور وكلامه وقراراته، فكان الإمبراطور بذلك مضطرا لإقامة أول مجمع مسكون في نيقية سنة 325 م من أجل إضفاء المشروعية المسيحية على الآراء الوثنية، وقد أفضى المجمع إلى إقرار مجموعة من القرارات من ضمنها: (... أما أولائك الذين يقولون إن المسيح في أي وقت من الأوقات لم يكن موجودا، وإنه جاء إلى الوجود من العدم ، أو الذين يتمسكون بأنه ابن الله من جوهر آخر، أو أنه مخلوق أو أنه قابل للتغيير والتبديل، أولائك تعلن الكنيسة الجامعة الرسولية أنهم ملعونون ومحرومون)، ويرسل الإمبراطور إلى الأساقفة يقول: (إن أريوس ورفاقه مبتدعون ومضللون، وإن عليهم لعنة الله والإمبراطور، وإذا عثر على أي رسالة كاتبها أريوس فليكن مصيرها النار وإذا قبض على أي شخص يخفي كتابا لأريوس ولا يظهره ويحرقه على الفور ، فعقابه الموت، وتنفيذ العقوبة فور ثبوت الجريمة ) ،انظر بتفصيل : د.سالمة عبد الجبار- الدين والسياسة-منشورات المؤسسة العربية للنشر والإبداع 1994، ص:32. [↑](#footnote-ref-7)
8. - مما نسب إلى الإنجيل في هذا الشأن: (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يكره الأول ويحب الثاني، أو أن يكون مخلصا للأول ويحتقر الثاني، لا تقدروا أن تخدموا الله والمال معا) إنجيل متى 6-24. [↑](#footnote-ref-8)
9. - من العوامل الخارجية التأثر بكتابات ابن رشد ، ونشوء تيار الرشديين بأوروبا ، وتأثر قيصر ألمانيا فريديريك الثاني بالإسلام في القرن الثالث عشر ، مع ما ترتب عن ذلك من معارضته للكنيسة الكاثوليكية والبابا في محاولته السيطرة على العالم مما ساهم في بلورة الإصلاحات التي جاء بها لاحقا مارتن لوثر . [↑](#footnote-ref-9)
10. - أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالسنة، وأخرجه الترمذي في الفتن. [↑](#footnote-ref-10)
11. - أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، ورفعه ابن ماجة عن أبي هريرة، وهو عند ابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، وقال الحاكم: إنه حديث كبير في الأصول، وقد روي عن سعد بن أبي وقاص وابن عمر وعوف بن مالك وأنس بن مالك وجابر وأبي أمامة ومعاوية وواثلة... أنظر: محمد عبد الرحمن السخاوي، المقاصد الحسنة ص: 259. [↑](#footnote-ref-11)
12. - قد تتعدد الآراء المستخلصة من النص، إلى حد التناقض أحيانا، من دون أن يكون أي منها مقدسا أو معصوما كما هو موضح في مباحث الدلالة في علم الأصول، وإنما تنحصر القداسة في ذات النص ، لا في الانطباعات التي تحصل حوله. [↑](#footnote-ref-12)
13. - انظر بتفصيل: أبو محمد بن حزم الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الفكر 1980، 4/156، وانظر أبو الفتح أحمد الشهرستاني الملل والنحل تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت لبنان 1402هـ /1982م ، 1/116. [↑](#footnote-ref-13)
14. - أبو الحسن علي بن عبد الكريم بن الأثير الشيباني، الكامل، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الخامسة 1985، 13/173. [↑](#footnote-ref-14)
15. - المصدر السابق 13/172 [↑](#footnote-ref-15)
16. - كفروا عليا لأنه قبل التحكيم فقالوا "لا حكم إلا لله" وكفروا ابنه الحسن لأنه تنازل عن الحكم لمعاوية حقنا للدماء فأباحوا دمه، وأقبل عليه الجراح بن سنان وأخذ بلجام دابته ثم قال: (الله أكبر، أشركت كما أشرك أبوك من قبل) وطعنه، بمغول في أصل فخذه فقطع الفخذ إلى العظم، يراجع كتاب الحسن بن موسى النوبختي فرق الشيعة الطبعة الثانية 1984، ص:24 والمؤلف من أعلام القرن الثالث الهجري. [↑](#footnote-ref-16)
17. - لعل أول من استعمل ثنائية الدين والتدين في بيان الفروق بين الإلهي والإنساني الدكتور عبد المجيد النجار في كتاب في فقه التدين فهما وتنزيلا، سلسلة كتاب الأمة، الجزء الثاني 1989، والمستشار عبد الجواد ياسين في كتاب: الدين والتدين دار التنوير للطباعة والنشر 2012. [↑](#footnote-ref-17)
18. - استمرت الحروب بين السنة والشيعة أكثر من قرنين من الزمن من 1514 م إلى 1735 م أدت إلى إنهاك قوى المعسكرين معا (معسكر السنة ممثلا في الدولة العثمانية، ومعسكر الشيعة ممثلا في الدولة الصفوية ) مما مكن الاستعمار من احتلال أكثر ديار المسلمين ، حتى يمكن القول بأن الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة ساهمت في إيجاد الكثير من المشاكل التي تعرف اليوم بمشاكل الشرق الأوسط، يراجع د.عبد المنعم حسنين، إيران في ظل الإسلام في العصور السنية والشيعية دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة ط 1، 1988. [↑](#footnote-ref-18)
19. - وفي هذا من التلبيس مالا يخفى لأن " كلمة الله " معناها أنه مخلوق بكلمة من الله هي " كن " وليس أنه هو الكلمة، قال تعالى: (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) سورة آل عمران آية: 9 على نحو قوله تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) سورة الأنعام آية: 116. (وتمت كلمة ربك على بني إسرائيل بما صبروا) سورة الأعراف، آية: 137، أنظر محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي بدون تاريخ، ص: 490. [↑](#footnote-ref-19)
20. - المرجع السابق، ص: 496 [↑](#footnote-ref-20)
21. - سورة الزخرف، آية: 2 [↑](#footnote-ref-21)
22. - سورة الأنعام، آية: 1 [↑](#footnote-ref-22)
23. - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثالثة، دار المعارف 1979، ج:8 ص: 631 -632. [↑](#footnote-ref-23)
24. - المصدر السابق، ج 8 ص: 638. [↑](#footnote-ref-24)
25. - المصدر السابق، ص/636. [↑](#footnote-ref-25)
26. - د. برهان غليون، نقد السياسة، الدولة والدين، ص: 614-615. [↑](#footnote-ref-26)
27. -يقول ابن عربي عن كتابه الفتوحات المكية (فوالله ما كتبت منه حرفا إلا عن إملاء إلهي وإلقاء رباني أو نفث روحاني في روع كياني ) ، هذا جملة الأمر مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا أنبياء مكلفين ) الفتوحات المكية، دار الفكر، 3/456 ،ويقول في فصوص الحكم: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم... بمحروسة دمشق وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب فقال لي : هذا فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناسي ينتفعون به.. فحققت الأمنية وأخلصت النية وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي رسول الله صلى الله عليه و سلم من غير زيادة ولا نقصان ) يراجع فصوص الحكم ، تحقيق أبو العلا عفيفي دار الكتاب العربي ط 2، 1980 ص: 1- 2 ، ويقول أبو العباس أحمد التيجاني: (من ترك ورده وأخذ وردنا وتمسك بطريقتنا هذه الأحمدية المحمدية الإبراهيمية الحنيفية التيجانية، فلا خوف عليه من الله، ولا من رسوله، ولا من شيخه أيا كان من الأحياء أو من الأموات، أما من أخذ وردنا وتركه فإنه يحل به البلاء دنيا وأخرى ولا يموت إلا كافرا قطعا، وبذلك أخبرني سيد الوجود صلي الله عليه وسلم يقظة لا مناما) ينظر: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني لسيدي علي حرازم بن العربي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ص: 374-377 يراجع أيضا الدكتور تقي الدين الهلالي، الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية دار الطباعة الحديثة 1977، ص:11-25. [↑](#footnote-ref-27)
28. - توجد الشيعة الإمامية الاثنا عشرية حاليا في إيران والعراق ولبنان والعربية السعودية ، كما تنتشر في العديد من دول العالم الاسلامي وفي الغرب نتيجة ما يعرف بخط "تصدير الثورة " [↑](#footnote-ref-28)
29. - قد يعتقد البعض أنه مادام الإمام المعصوم غائبا ، فالإشكال غير مطروح من الناحية العملية، إلا أن الأمر ليس كذلك، حيث أن للشيعة إثنا عشر إماما كلهم معصومون أحلوا وحرموا وشرعوا وأخبروا، فلا زالت آثارهم تفرض نفسها على خاصة الشيعة وعامتهم على أنها جزء من الدين ومواريث النبوة، ثم إنه منذ أن نظر الإمام الخميني لفكر ما سمي ب" إمامة الفقيه" بعد انتصار الثورة الاسلامية في إيران سنة 1979 "تم منح نائب الإمام نفس صلاحيات "إمام الزمان " وعلى رأسها العصمة، فصار المنكر عليه كالمنكر على الإمام. [↑](#footnote-ref-29)
30. - سورة التغابن، آية: 64. [↑](#footnote-ref-30)
31. - أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، الأصول من الكافي دار الأضواء، بيروت لبنان، ج 1، ص: 184-193. [↑](#footnote-ref-31)
32. - د. عبد المنعم النمر. الشيعة، المهدي، الدروز تاريخ ووثائق، مكتبة التراث الإسلامي الطبعة الرابعة 1988، ص:115-116 يقارن مع بنود الإرادة البابوية في مبحث العلمانية في المرجعة الغربية . [↑](#footnote-ref-32)
33. - الحسن بن موسى النوبختي، فرق الشيعة ص:93. [↑](#footnote-ref-33)
34. - سورة النساء، آية:5. [↑](#footnote-ref-34)
35. - سورة النساء، آية:28. [↑](#footnote-ref-35)
36. - النوبختي، فرق الشيعة، ص:43، قارن بين هذا القول وقول بولس (تحررنا من الشريعة... لذلك نحن نعبد الله بطريقة جديدة بالروح وليس بالطريقة القديمة حسب الفرائص المكتوبة) رسالة بولس إلى المؤمنين في روما:7. [↑](#footnote-ref-36)
37. - سورة الانفطار، آية: 8. [↑](#footnote-ref-37)
38. - سورة الأنعام، آية: 38. [↑](#footnote-ref-38)
39. - سورة فاطر، آية: 24. [↑](#footnote-ref-39)
40. - الحسن بن موسى النوبختي، فرق الشيعة ص: 37. [↑](#footnote-ref-40)
41. - من أعلام الشيعة في القرن الثالث الهجري. [↑](#footnote-ref-41)
42. - الحسن بن موسى النوبختي، مصدر سابق، ص:94. [↑](#footnote-ref-42)
43. - من ضمنها: الباب وباب الباب، وبهاء الله والقدوس... إلخ وفي هذا السياق نذكر بأن الفرق الإسلامية في المجتمع الإسلامي لم تبن أسس عقائدها بمعزل عن التيارات الوثنية والكتابية السائدة، فإضافة إلى ما ذكرناه من مبدأ تناسخ الأرواح المنقول من الديانة البرهمية، وفكر العصمة المنقول من التراث الساساني ، نجد انتقال فكرة المخلص أو الفداء من التراث المسيحي إلى الفكر الشيعي من خلال القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا ربه بأن يتحمل وحده جميع ذنوب الشيعة، فلقد روي عن الإمام جعفر أنه قال: ( لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( إلهي ضع علي جميع ذنوب شيعة أخي علي بن أبي طالب وأولادي الذين هم أوصيائي والشيعة كلهم إلى يوم القيامة ، ولا تخجلني بين الأنبياء بسبب ذنوب الشيعة ) قاله باقر مجلسي، في كتابه حق اليقين ص:125 نقلا عن محب الدين الخطيب، البهائية المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة، ص:18. [↑](#footnote-ref-43)
44. - عمل حمزة بن علي مع بعض أتباعه وخصوصا محمد بن إسماعيل الدرزي على نشر فكرة تأليه الخليفة "الحاكم بأمر الله الفاطمي" الذي تولى منصبه بعد أبيه العزيز بالله من سنة 386 هـ إلى سنة 411 هـ، ، واقتنع الحاكم بالفكرة سنة 400 هـ وأظهرها سنة 408 هـ ، وقتل بعد إظهارها بثلاث سنوات ، أي سنة 411 هـ ، وليس الحاكم هو الوحيد الذي ادعى الألوهية، بل إن هذا الادعاء كثير عند أئمة الطائفة الإسماعيلية والفاطمية، وعليه جاءت أشعار شعرائهم في مدح الأئمة والخلفاء مثل قول ابن هانئ يمدح المعز:

ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فإنك الواحد القهار

وكأنمـــا أنــت النبـــي محـــــمد وكأنما أنصارك الأنصــار. [↑](#footnote-ref-44)
45. - د. عبد المنعم النمر، الشيعة، المهدي، الدروز، تاريخ ووثائق، ص:276-277. [↑](#footnote-ref-45)
46. - ت سنة 179 هـ [↑](#footnote-ref-46)
47. - ت سنة 204 هـ [↑](#footnote-ref-47)
48. - ت سنة 478 هـ [↑](#footnote-ref-48)
49. - ت سنة 684 هـ [↑](#footnote-ref-49)
50. - وله ايضا كتاب " الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام " وكتاب "الذخيرة " [↑](#footnote-ref-50)
51. - توفي ابن القيم سنة 751 هـ، ينظر كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد مؤسسة الرسالة 1994 ج: 3.. وأيضا إعلام الموقعين عن رب العالمين تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير لبنان . [↑](#footnote-ref-51)
52. - توفي بدر الدين الزركشي سنة 794 هـ [↑](#footnote-ref-52)
53. - ت سنة 1176 هـ [↑](#footnote-ref-53)
54. - ت سنة 1354هـ [↑](#footnote-ref-54)
55. - ت سنة 1393هـ [↑](#footnote-ref-55)
56. - صادر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر سنة 2017 [↑](#footnote-ref-56)
57. - صادر عن المركز الثقافي العربي سنة 2009 وله أيضا في الموضوع: جهود المالكية في تصنيف التصرفات النبوية، صادر عن دار الكلمة سنة 2012، وكتاب تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة، الدلالات المنهجية والتشريعية منشورات الزمن سنة 2002، والمنهج الوسط في التعامل مع السنة النبوية دار الكلمة سنة 2012 [↑](#footnote-ref-57)
58. - سيرة الرجل غنية سياسيا أيضا فقد شغل على فترات متقاربة منصب رئيس مجلس النواب المغربي، ورئيس المجلس الوطني لحزب العدالة والتنمية، والأمين العام لنفس الحزب، وعضو مجلس الشورى المغاربي، ووزير خارجية المملكة المغربية ورئيس حكومتها... [↑](#footnote-ref-58)
59. - الدين والسياسة تمييز لا فصل ص 143 [↑](#footnote-ref-59)
60. - سعد الدين العثماني الدين والسياسة تمييز لا فصل المركز الثقافي العربي سنة 2009 ص: 7 [↑](#footnote-ref-60)
61. - سورة التوبة، آية:31. [↑](#footnote-ref-61)
62. - عبد الرحمن جلال الدين السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1983، 4/174. [↑](#footnote-ref-62)
63. - أخرجه الترمذي وحسنه ابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي. [↑](#footnote-ref-63)
64. - سورة النحل، آية: 34-36. [↑](#footnote-ref-64)
65. - جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت بدون تاريخ، 1/140. [↑](#footnote-ref-65)
66. - سورة آل عمران، آية:24. [↑](#footnote-ref-66)
67. - سورة النحل، آية:115. [↑](#footnote-ref-67)
68. - سورة النحل، آية:116. [↑](#footnote-ref-68)
69. - أخرجه البخاري في الشهادات ،باب من أقام البينة بعد اليمين ،وأخرجه مسلم في الأقضية ، باب الحكم بالظاهر ، ومالك في الموطأ في الأقضية. [↑](#footnote-ref-69)
70. - بريدة بن الحصيب الأسلمي ، توفي سنة 62 هـ [↑](#footnote-ref-70)
71. - أخرجه مسلم في كتاب الجهاد، رقم الحديث 1731 . [↑](#footnote-ref-71)
72. - صحابي خزرجي، كان ممن بايع النبي عليه السلام على الموت ، شهد معه المشاهد كلها ، ثبت

 معه يوم أحد ، وتوفي في ولاية عمر بن الخطاب . [↑](#footnote-ref-72)
73. - انظر سيرة ابن هشام ج 2 ص 66. [↑](#footnote-ref-73)
74. - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين تحقيق محمد

 محي الدين عبد الحميد، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير لبنان، بدون تاريخ، ج:1، ص:29. [↑](#footnote-ref-74)
75. - المرجع السابق، ج: 1، ص: 30. [↑](#footnote-ref-75)
76. - المرجع السابق، ج: 1، ص: 30. [↑](#footnote-ref-76)
77. - سفيان بن عيينة ، إمام ومحدث ، عرف بالزهد ، وتوفي سنة 198 هـ . [↑](#footnote-ref-77)
78. - المرجع السابق، ج: 1، ص: 40. [↑](#footnote-ref-78)
79. - شهاب الدين أبو العباس الصنهاجي القرافي، الفروق دار المعرفة بيروت لبنان، بدون تاريخ، ج:1 ص: 205-206 . [↑](#footnote-ref-79)
80. - وهذا بدوره مستمد من قطعيات النصوص ونجده معبرا عنه في القواعد الفقهية بعدة صيغ منها: المشقة تجلب التيسير، إذا ضاق الأمر اتسع، الضرورات تبيح المحظورات... إلخ. انظر: مصطفى أحمد الزرقا، الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد، الجزء الثاني. المدخل الفقهي العام-دمشق 1387هـ/ 1968م، ص:1078-1079. [↑](#footnote-ref-80)
81. - مخلص السبتي، الصحوة الإسلامية بالمغرب، الأسس المعرفية وتحليل الخطاب، ط1، 1995، مطبعة النجاح الجديدة، ص:133. [↑](#footnote-ref-81)